عبده بدوي

ذكريات عبرت ورسخت!

أنا أعرف أن
الشيء الأخضر في
قلب العالم
هو نبض يكسو
وجه الحلب
وهو الأنفاس الأولى
في صدر الصمت
الأحمر
وهلال لم يشبح من
ندى الشمس
وهو الباقي رغم
الأيام المضطربة
وهو الإنسان
المشدود الكتفين
والممسك بالكفين
موافي الأرض
والشادي بالأشعار

عبده بدوي

بقلم: د. حلمي القاعود
مصر

-١-

في صيف عام ١٩٦٣ كنت في رأس البر، قرأت في الصحف إعلانًا كبيرًا نوعًا ما، عن صدور مجلتين جديدتين هما «الرسالة» و«الثقافة»، وثمن كل مجلة منهما ثلاثة قروش أي ما يعادل ثلاثة جنيهات الآن. كنت في شوق لأرى المجلتين اللتين كانتا امتدادًا لمجلتين تصدران في الثلاثينيات والأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وكان يحررها رواد الأدب والثقافة في بلادنا والبلاد الإسلامية. «الرسالة» يحررها أحمد حسن الزيات الذي كان يوم الإصدار الثاني للرسالة رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر فنفخ في هذه من روح تلك، وكان ثمنها آنئذ قرشين، وكنت أشترك فيها اشتراكًا مخفضًا بوصفي من الطلاب أما «الثقافة» فقد كان يحررها أحمد أمين ثم محمد فريد أبو حديد، وكلاهما صاحب وجود أدبي راسخ في الكتابات الإسلامية والأدبية. تشوقت لرؤية المجلتين الجديدتين، وقد عادتا بالمحررين نفسيهما: الزيات، أبو حديد، وقطعت المسافة مشيًا بين شارع ١٠١ الذي كنت أقيم فيه برأس البر، وبين الشارع المطل على النيل قبل اللسان، لأشتري المجلتين الجديدتين، وأرى من خلالهما المجلتين القديمتين.

رحت أقرأ بشغف وأتابع المقالات والأشعار والقصص، ثم صرت فيما بعد أتابع المجلتين أسبوعيًا والمجلات الأخرى الشهرية التي صدرت بعدهما: الشعر، القصة، الفكر المعاصر، الفنون الشعبية، الكتاب، تراث الإنسانية، ولكنها صدرت في عهد رجل جاد محب للثقافة والوطن والإسلام، هو الدكتور محمد عبدالقادر حاتم، الذي قاد الوزارة في حرب رمضان

١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، على عهد الرئيس الراحل أنور السادات.

لفت نظري في الرسالة أسلوب جميل مجتمع في باب من أبواب الرسالة بعنوان «الأدب في أسبوع» يحرره عبده بدوي، يتناول فيه أهم الأحداث الأدبية والثقافية التي تجري في مصر والعالم العربي والإسلامي، وأحيانًا يذيله بقصيدة من قصائده في مناسبة من المناسبات. تجرأت وكتبت له أعلق على بعض ما كتبه، فوجدت إشارة إلى بعض رسائلي في صفحات البريد التي كانت تسمى البريد الأدبي، وكان يكتب فيها كبار الأدباء والشعراء تعليقًا على المواد المنشورة في الأعداد السابقة أو تصحيحًا لعبارات أو أوزان، أو طرقًا لبعض القضايا الأدبية والثقافية.

سرني نشر اسمي في الرسالة فبدأت أكتب موضوعات وتعليقات، وأراها منشورة في البريد الأدبي، كنت أرسل ما أكتبه إلى عبده بدوي، الذي لا أعرفه، ولم أر غير صورته المنشورة مع مقاله الأسبوعي، وجاءت الفرصة بعد شهور، حيث زرت القاهرة لأمر ما، وكنت قد تلقيت رسالة من عبده بدوي يرحب فيها بلقائي، ولكنه لم يحدد موعدًا أو مكانًا للقائه. قادتني رجلاي إلى دار الأدباء بشارع قصر العيني لأحضر ندوة أسبوعية كانت تقيمها الدار ودفعتني حماقتي الريفية لأعلق على كلام أحد ضيوف الندوة بما يخالف رأيه، وعبّرت عن رأيي بأسلوب بسيط وبلهجتي الريفية النشاز، وجدت القاعة تصفق لي، ثم فوجئت عقب الندوة بشخص فارع غزير الشعر يرتدي نظارة طبية، يبتسم، ويرحب بي بصوت عال، ثم يحتضنني، عرفت أنه عبده بدوي، الذي أعرفه ويعرفني من خلال الورق، اصطحبني لأتعرف على عدد كبير من كبار الأدباء والشعراء الموجودين في الندوة يومها، وسلمت عليهم في خجل ريفي، ولكنه كان يشجعني بابتسامته المضيئة الحانية، ثم أعطاني عنوان بيته في الحلمية، ورقم هاتفه، وتعددت زياراتي له، ولقاءاتي به وتعرفت على مؤلفاته ودواوينه.

-٢-

كانت «الرسالة» و«الثقافة» عالماً محركًا للحياة الثقافية بما تنشرانه وما تثيرانه من قضايا، وكانت السلطة في ذلك الوقت تمارس قمعها تحت ظلال الاشتراكية وخاصة بعد أن أفرجت عن الشيوعيين، ومكنتهم من وسائل النشر والإعلام والصحافة، التي تم تأميمها جميعًا، وبدأت حملة منظمة يقودها الشيوعيون في أكثر من موقع صحفي وإعلامي، كان أكثرها تأثيرًا مجلة روز اليوسف التي كانت معقل الشيوعيين الرئيسي في الصحافة المصرية في ذلك الوقت. تناولت الحملة ما ينشر في الرسالة والثقافة كما تناولت كتابها وأدباءها، وكان مضمون الحملة يمضي تحت راية مواجهة الرجعية، ولفظة الرجعية هي (الشفرة) أو (الكود) الذي يعني الإسلام في مفهوم الشيوعيين، ولأن الدولة في ذلك كانت ترفع لافتة الاشتراكية، فقد عدّوا الإسلام خصمًا للاشتراكية، وتعاملوا معه كما كان الزعماء الشيوعيون في موسكو يتعاملون معه بوصفه أفيونًا للشعوب، وإن كان بعضهم قد حاول أن يخادع الجمهور بالقول إن الاشتراكية لا تعارض الإسلام، وقد حاولت الرسالة والثقافة الرد على حملات الشيوعيين، ولكنها محاولات لم تؤت ثمارًا، لأن الرجل الذي أصدر المجلات الثقافية وهو الدكتور حاتم كان قد أزيح عن منصبه، ودخل طرف آخر أشد بأسًا من الشيوعيين، وإن كان مقربًا إليهم، ويقال إنه في مرحلة ما، كان واحدًا منهم وهو الدكتور لويس عوض المستشار الثقافي لجريدة الأهرام آنئذ، فقد كان الشيوعيون في روز اليوسف والجمهورية والأهرام من حواريه، ويلتقون في مكتبه أو منزله، وبحكم أنه كان يشرف على الصفحات الأدبية في الأهرام التي تمثل أقوى الصحف، فقد أخذت الحملة مسارًا أشد وأعنف.

كان لويس عوض في ذلك الوقت يكتب مقالات مطولة مسلسلة حول رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، الحلقة الواحدة تنشر على صفحة كاملة مزينة برسوم كبار الرسامين، وأثارت هذه المقالات ضجة كبيرة لما ورد فيها من مغالطات متعمدة وأغلاط فظيعة، تصب كلها في خانة التعصب الديني، والضحايا الفكرية.

كان عبده بدوي مديرًا لتحرير الرسالة واستطاع أن يستكتب المحقق الكبير محمود محمد شاكر، ليرد على أباطيل لويس عوض، واشتعلت معركة أدبية حامية، تحولت إلى معركة تكسير عظام، انضم إليها الشيوعيون والعلمانيون وأصحاب الهوى إلى جانب لويس عوض الذي وضح أن الدولة تسانده ولن تسمح بهزيمته، أما الطرف الآخر، فقد انضم إليه عدد محدود من الكتاب الذين أسهموا بمقالات في كشف تزييف،

لويس أبرزهم محمد جلال كشك، الحساني حسن عبدالله، عباس خضر، أمين سلامة، عامر محمد بحيري، عبدالكريم الخطيب.

وكان عبده بدوي يحاول بقلمه أن يرشد المعركة إذا صح التعبير، ويحولها إلى اتجاهها الأصلي، ولكن التخطيط الشيوعي، كان أكثر ضجيجًا، واستطاع أن يوحي أن المعركة تعصب إسلامي، ضد الكاتب لويس الذي لم يكن مسلمًا.

ثم خطا لويس خطوة أبعد، حين استغل فرصة تعيين وزير جديد للثقافة وهو الدكتور سليمان حزين وكان أستاذًا للجغرافيا في جامعة القاهرة، فوضع أمامه على صفحة كاملة أرقامًا غير صحيحة لتوزيع المجلات التي تصدرها وزارة الثقافة، وأوحى أن هذه المجلات تحمل خزينة الدولة خسائر مادية كبيرة ليست ملزمة بتحملها، مع غمزات للقائمين على هذه المجلات، فبدأ الحديث عن دمج الرسالة بالثقافة لتصدر مجلة باسم «رسالة الثقافة»، ولكن تسارع الأحداث سبق الجميع وغلقت الأبواب، ونجح لويس عوض في إطفاء شموع التعبير، وتوقفت جميع المجلات باستثناء مجلة المجلة، التي كانت ذات توجه غربي صريح.

إبراهيم سعفان

في هذه الفترة بدأت مرحلة جديدة في حياة عبده بدوي فقد وجد نفسه بلا عمل، بلا مكتب، ولا كرسي يجلس عليه في هيئة الكتاب التي كانت تسمى آنئذ «المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة والطبع». وكانت رئيسة مجلس الإدارة في هذه المؤسسة أستاذة جامعية ذات شهرة أدبية، استغلت موقعها الجديد للتضييق على عبده بدوي، مما دفعه إلى الحضور صباحًا للتوقيع، ثم يعود بعض الظهر ليوقع الانصراف، وقد استفاد من هذه الفترة في الذهاب إلى دار الكتب بباب الخلق لينهض بإعداد رسالة الدكتوراة التي كان قد أهملها بعض الوقت، وكانت تدور حول «الشعراء السود وخصائصهم الفنية» بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي.

كان هاجس الاعتقال مسيطرًا على عبده بدوي مثلما كان مسيطرًا على جميع الناس، فقد كان النظام يعتمد على الوشايات والجواسيس، حتى داخل الأسرة الواحدة، وخصوصًا بعد تشكيل ما سمي بالتنظيم الطليعي، المكون من نخبة تحرص على إبداء الولاء للنظام بكل السبل، حتى لو كان من بينها كتابة التقارير عن الآباء والأمهات والإخوة والأخوات ومع انهيار النظام عقب هزيمة يونيه ١٩٦٧ كان المأمول تخفيف قبضة النظام القمعية العسكرية، ولكنها ازدادت بتكوين التنظيم الطليعي، ومراقبة الناس، وخصوصًا المعارضون ولوهمسًا، وكانت أجهزة الدعاية تسميهم بالثورة المضادة، التي لا يحق لها الوجود والبقاء وكان نتاج هذه الفترة ديوانه «كلمات غضبى» الذي كتبه في فترة قصيرة، وكان أهم دواوينه على الاطلاق.

حدثني رحمه الله أنه جهز حقيبة ملابس وأدوات خاصة، ووضعها خلف باب الشقة، وكان يسكن في الحلمية الجديدة، توقعًا لزوار الفجر الذين كانوا يقبضون على الناس، وظل الأمر كذلك، حتى مات عبدالناصر وبدأ عهد جديد.

في هذه الفترة كان عبده بدوي قد حصل على الدكتوراه من دار العلوم، وكانت في مقرها القديم بالمنيرة، وشاهدت المناقشة الخصبة التي شارك فيها كل من الدكتور أحمد الحوفي والدكتور محمد خلف الله أحمد، مع المشرف، رحمهم الله جميعًا وسعدت لحصوله على درجة الامتياز، وكانت الدكتوراه طوق النجاة حيث سافر بعدها إلى الخرطوم ليعمل في جامعة أمدرمان الإسلامية ويتخرج على يديه عدد كبير من أبناء السودان الشقيق.

توالت رسائله إليّ من هناك وأذكر أن إحدى رسائله كانت سببًا في التعرف على زميله في هيئة الكتاب الأديب إبراهيم سعفان فقد ترك لديه أحد كتبه الجديدة التي أهداها لي وكانت علاقة طيبة مع إبراهيم حتى يومنا هذا.

-٣-

في أواخر الستينيات على ما أذكر، كانت هناك مجلة أدبية جديدة ظهرت في الكويت اسمها «البيان» تحتفي بالعروبة والإسلام، شكلاً وموضوعًا، وكان غلافها مزينًا بخط الثلث الجميل وبعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة مع زخرفة إسلامية عذبة تشكل العنوان. أسس هذه المجلة الأديب المعروف عبدالله زكريا الأنصاري، وكان الرجل

يجمع في سماحة أدباء الأمة العربية على صفحاتها، وكانت بحق سوق عكاظ يضم الراسخين والناشئين وكان عبده بدوي واحدًا من عمد هذه المجلة بكتاباته النثرية والشعرية، وقد كان له فضل أن أكتب فيها دراساتي النقدية، وأنشر بعض قصصي القصيرة، ومن بين ما كتبته دراسة طويلة عن شعر عبده بدوي تناولت فيها «كلمات غضبى» و«الحب والموت»، والمجموعتان تتناولان فكرة التسلط أو القمع التي يعيش تحتها الإنسان العربي المسلم من خلال رموز تاريخية دالة، وأذكر أن له بيتًا شد انتباهي وجعلني أحفظه مع أن ذاكرتي مهلهلة لا تستبقي شيئًا يقول البيت الذي يعبر عن زمن الخوف:

إني أعيش الرعب يتبع خطوتي

والخوف ينعس جفنه بدمائي

ولعله من أوائل الشعراء الذين عبروا عن رفضهم للكلمة الزائفة المتخلفة التي تخدم السلطان لا الإنسان، وقد حمل على الشعراء والأدباء والكتاب المنافقين حملة شعواء، ارتفع فيها صوته في بعض المواضيع، وتبقى «كلمات غضبى» من أفضل دواوينه، إن لم يكن أفضلها جميعًا، وقد أثنت عليه «نازك الملائكة» في لقاء لي معها.

كان إلى جانب مجلة البيان الكويتية، مجلتان أخريان تصدران في لبنان هما «الآداب» و«الأديب» تهتمان بالأدب، وكانت مجلة «العلوم» إلى جانبهما تهتم بالأدب أيضًا إلى حد ما، وتنشر بعض المقالات والدراسات الأدبية والنقدية وقد استطعت أن أعرف ببعض إنجازات عبده بدوي الشعرية، على صفحات «الآداب» فكتبت عن (محمد قصيد سمفوني) الذي كان فتحًا جديدًا في الشعر المعاصر، وكان هذا القصيد قد أعده الموسيقار سليمان جميل ليقدم في أحد المسارح، وبالإضافة إلى القصيد السمفوني، فقد كتب عبده بدوي أوبرا «الأرض العالية» حول حركة الاستقلال الإفريقي، وقد ضمنت كلامي عن القصيد السمفوني شيئًا عن هذه الأوبرا، وبينت أن عبده بدوي، يسعى لتطوير الشعر العربي من خلال الاستفادة بالأشكال الموسيقية الأوروبية في إطار مفهوم إسلامي يعبر عن أشواق الإنسان المسلم وطموحاته، وكان لما كتبته في «الآداب» صدى جيد، حيث أثيرت قضية تجديد الشعر في إطار موضوعي بعيدًا عن المهاترات التي كانت سائدة آنئذ حول التعصب للشعر التقليدي والشعر التفعيلي.

أما الفرح الأكبر فقد عبر عنه عبده بدوي حين التقينا، وأذكر أننا قضينا وقتًا طويلاً في مناقشة التجديد في منزله وخارجه، وكنت أرى أن الحل لمشكلة التكرار والرتابة في الشعر المعاصر، يكمن في الانتقال إلى الشعر الدرامي، مسرحًا وملحمة وقصيدًا سمفونيًا وأوبرا وشعرًا للأطفال يتضمن قصصًا وأناشيد وقصائد غنائية.

بعد موت عبدالناصر ومجيء السادات أخذ جو القمع والكبت يتراجع، وأخذت الصحف بعد عودة المنفيين والإفراج عن المعتقلين تأخذ طابعًا أكثر انفتاحًا في التعبير، وأخذ الناس يسمعون نغمات جديدة في تحليل الأحداث، ومعع تولي يوسف السباعي وزارة الثقافة والإعلام صدرت مجلات جديدة تعبر عن أصوات كانت محجوبة، معظمها من الأصوات التي احتجبت مع توقف الرسالة وأخواتها، فقد صدرت مجلة الجديد التي يحررها رشاد رشدي، الذي صار مستشارًا ثقافيًا لرئيس الجمهورية وهو من المعادين لليسار، ثم صدرت مجلة الثقافة برئاسة يوسف السباعي نفسه، وأسندت الرئاسة فيما بعد إلى عبدالعزيز الدسوقي وقد صار عبده بدوي عضوًا في مجلس تحريرها منذ إنشائها، وكان يكتب مقالاً شهريًا يتناول الجوانب الحضارية الإسلامية، فضلاً عن تناول بعض الظواهر الأدبية الأخرى.

يوسف السباعي

بيد أن عبده بدوي ظل يراوده حلم إعادة مجلة «الشعر» التي كانت تصدر في الستينيات، وتولى منصبًا في هيئة تحريرها، ثم أغلقت مع بقية المجلات بفعل جهود لويس عوض.

حاول أن تصدر المجلة عن هيئة الكتاب، ولكن العقبات وضعت في طريقه، بيد أنه واصل إلحاحه على من يعرف من المسؤولين، وفي مقدمتهم صديقه الوزير يوسف السباعي ولم ييأس في كل الأحوال، لأن المناخ العام كان يشي أن شوكة الشيوعيين وأتباعهم قد تراجعت، خصوصًا بعد سقوط إمبراطورية هيكل، في الأهرام، وخروج الشيوعيين إلى بلاد النفط والضباب، وبحثهم عن المال الذي تدفق عليهم في الخليج، وصحف المهجر الأوروبي.

واستطاع عبده بدوي أخيرًا أن يجد عونًا من ثروت أباظة الذي كان رئيسًا لتحرير مجلة إدارة الإذاعة والتلفزيون، وصدرت مجلة الشعر الفصلية، يرأس تحريرها عبده بدوي وتستكتب عددًا من كبار الكتاب والشعراء، وأذكر أنه أقنع شوقي ضيف رحمه الله، كي يكتب بعد انقطاع طويل أول مقالة لمجلة الشعر، وكان شوقي ضيف يحرص دائمًا ألا يبدد جهده في كتابة المقالات، ويركز على تأليف الكتب، وهو ما مكنه من خدمة المكتبة العربية الحديثة بتقديم مجموعة من أمهات الكتب أبرزها موسوعة الشعر العربي في نحو ثمانية أجزاء ضخمة تبدأ من العصر الجاهلي، وكانت نازك الملائكة في مقدمة الشعراء الذين أسهموا في العدد الأول والأعداد التالية، وأرسلت أولى قصائدها من الكويت بالبريد السريع، وكانت من أجمل القصائد التي تحدثت عن عبور قناة السويس، حيث اعتمدت على ما جرى للجيش الثالث المحاصر في سيناء وتفجر أحد الينابيع العذبة تحت أقدام الجنود ليشربوا بعد طول عطش، وربطت الشاعرة بين تفجر زمزم القديمة وزمزم الحديثة في بناء شعري رائع، كتبت عنه في الأهرام بعدئذ.

ثروت أباظة

كنت أجلس معه الساعات الطوال لنناقش المواد، ونسعى إلى الكتاب والشعراء وأسند إليّ الردود على القراء بجانب ما أكتبه من مقالات وأخبار وباب للأصوات الشعرية الجديدة، وظلت المجلة تصدر على مدى أحد عشر عامًا حاملة ثمار جهود كبيرة لأصحابها من المشاركين في التحرير، فضلاً عن الافتتاحية المهمة التي يتناول فيها قضايا حيوية حول الشعر والشعراء، وجاء سفره إلى الكويت ليعمل أستاذًا في كلية الآداب، مهاجرًا من جامعة عين شمس التي كان قد انضم إلى هيئتها بعد عودته من السودان ليهيئ فرصة لبقايا الشيوعيين وأحلاس المقاهي، كي يهدموا هذا الصرح الثقافي المهم، متصورين أن إزاحة عبده بدوي من مجلة الشعر ستحقق لهم مكاسب مادية كبيرة، وبدؤوا في كتابة الشكاوى والمذكرات إلى المسؤولين، وكان الزمان قد اختلف وبدأت عودة اليساريين من الخارج وراحوا يقولون كيف يكون رئيس التحرير بالخارج والمجلة تصدر من الداخل؟

لم يلتفتوا إلى أن المجلة علمية، وتصدر كل ثلاثة شهور، أي أربع مرات في السنة، وأن رئيس التحرير لا يتقاضى مرتب رئيس تحرير بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه يقبض مكافأة عادية على مقاله الذي ينشر في المجلة، وكان يوزعه على العمال والأشخاص الذين يقومون على خدمة المجلة ما بين الإدارة والمطبعة، وقد حاولت مع الأستاذ سامي محمد رحمه الله، الذي كان نائبًا لرئيس مجلس الإدارة، مقاومة الهجمة الشرسة ضد المجلة من أطراف لا تقبل الآخر، وترفض أن يشاركها أحد في الحياة الثقافية، ولكن التيار كان هادرًا، واستطاع أحدهم بمعرفة موسيقار راحل أن يستصدر قرارًا من وزير الإعلام بتعيينه رئيسًا للتحرير، وقام صاحبنا بحملة دعائية كبرى في الصحف والمجلات تبشر بعهد جديد لمجلة «الشعر» وكان عهدًا جديدًا فعلاً، فقد بدأت المجلة تتردى وتخلو من الكتابات والأشعار الجيدة، وراح من سطا عليها- بعد اكتشاف أن المجلة لا تمثل مكسبًا ماديًا بحال من الأحوال - يشكو من قلة الإمكانات مما ترتب عليه ابتعاد الكتاب والشعراء الكبار، وفاجأ الناس ذات يوم باستقالته، بعد عدة أعداد أقل من أصابع اليد الواحدة، وانتقلت المجلة من يد إلى يد، حتى نسيها الناس، بعد أن رأس تحريرها من لا علاقة لهم بالشعر أو الأدب.

كان عبده بدوي حزينًا، ليس لأنه أبعد عن المجلة، ولكن لأنها تضيع وتنحدر وتموت كان يشعر أنها ابنته التي يخصها بكل المودة والعطف، وإذا بها تنتزع منه، وتلقى في الشارع، وتتحول إلى طريدة واقع ثقافي فاسد، لا يعبأ بقيمة ولا يهتم بفكرة.

في هذه الفترة كانت رسائل عبده بدوي إليّ تقطر أسى وغضبًا وألما، وكان الواقع الخارجي مع الواقع الشخصي أو الذاتي ينسجان ثوبًا بلون الكفن يلغي ماضيًا جميلاً ويشيعه إلى مثواه الأخير، كان يعاني في الكويت من شطط بعض المصريين الذين يعملون معه في الجامعة، ولا يقدرون إلا على بني جلدتهم إرضاء لمن يعملون لديهم أو إشباعًا لرغبة خسيسة في هدم المتفوقين والموهوبين.. وكان يحتمل ويختزن ويغطي على ما يجري ببسمة حزينة، لقد كان عفيف اللسان، مهذب السلوك، رقيق الحاشية، يبتعد عن الصدام، والحدة،

هل هذه طبيعة القادمين من الريف؟ أم هي طبيعته الخاصة؟ أظنها طبيعته الخاصة، فقد كان وحيد والديه (من الذكور) ونشأ يحب الوحدة والعزلة والتأمل، ويميل إلى استثمار وقته في القراءة والكتابة، ما دخلت عليه مرة إلا وجدته يعمل بالقراءة والكتابة أو الاستماع إلى شرائط الشعراء الذين يلقون قصائدهم، وظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته يقرأ، ويكتب، ويوالي المجلات الأدبية بقصائده ودراساته، ومازال لدى بعضها فيما أعلم بعض من إنتاجه الذي أرسله قبيل رحيله.

-٤-

كان غزو صدام للكويت حدثًا صادمًا لعبده بدوي، فقد كان من المضارين والمعذبين بهذا الغزو، واضطر أن يغادر الكويت مع ابنته داليا التي كانت معه في ذلك الحين، وترك شقته المؤثثة ومكتبته الثمينة، وخرج مع الألوف الذين غادروا هائمين على وجوههم في الصحراء، وركب سيارته ومضى، حتى التقطته طائرة مروحية عسكرية، وحملته مع الابنة إلى مصر، عائدًا منكسرًا يزداد الحزن في أعماق عينيه، ويطل من خلف نظارته في ألم لا يخفى على من يعرفه ومن لا يعرفه؟

بعد فترة من الزمان، تم فيها تحرير الكويت، كان يلزم بيته بلا عمل، حاول العودة إلى جامعة عين شمس ولكن القوم أصروا ألا يعود، فهم لا يريدون أن يشاركهم حتى لو كان قيمة علمية في حجم عبده بدوي، وقد جاءه الفرج من جامعة الإمارات، فقضى فيها عامًا، وأبدى عدم ارتياحه هناك، وطلبته جامعة الكويت ثانية، فسارع إلى العودة إليها، حيث وجد نفسه فيها.

وظل هناك حتى وصل سن السبعين أو نحوها، وقرر العودة إلى الوطن فاحتفت به كلية الآداب هناك، وأصدرت مجلدًا ضخمًا تذكاريًا كتبه زملاؤه وأصدقاؤه، وودعته أحسن وداع.

في مصر حاول العودة إلى الجامعة من جديد، ولكن القوم ظلوا على موقفهم، ذهب إلى مسؤولين عديدين، ولكن الأمر، كان يتعلق بالقسم الذي ينتمي إليه، وهو قسم اللغة العربية، الذي رفض قبوله، مثلما رفضه من قبل.

واستفادت به جامعة خاصة جديدة، عمل فيها فصلاً أو فصلين، فقد حرمه الفشل الكلوي من متابعة العمل في هذه الجامعة، وما أدراك ما الفشل الكلوي في مصر؟ إنه نار الله الموقدة للمريض ومن حوله، ماديًا ومعنويًا، وتزداد النار اشتعالاً حين تتخلى الدولة عن واجباتها تجاه أبنائها وخصوصًا العلماء والأدباء. لقد حاول أن يجد أي عون من الجامعة أو وزارة الثقافة أو اتحاد الكتاب ولكن دون جدوى، فقد استنزف العلاج مدخراته فضلاً عن بعض المشكلات الخاصة الأخرى، ولكنه كان يصمد ويقاوم ويصبر.

وفي الوقت الذي وجد تلاميذ تلاميذه وأشباه الأدباء تكريمًا ورعاية من الدولة، فإنه لم ينل جائزة الدولة التقديرية، التي حصل عليها من لا يستحقون أية جائزة، ومع أن هناك بعض الجامعات التي رشحته لهذه الجائزة فلم يسمع أحد أن اسمه جرى تداوله بين المرشحين، لقد فاز بجائزة عربية شهيرة، وقد عوضه هذا عن بعض ما عاناه في وطنه، ولكن يبقى الجرح.. ويبقى الحزن!

لم أستطع في الفترة الأخيرة من حياته أن أزوره، فقد عرفت أنه يقوم بعملية الغسيل الكلوي داخل البيت عن طريق جهاز حديث تم شراؤه خصيصًا لهذه العملية، وكان واضحًا أن التدهور الصحي يسير بعجلة سريعة، وأن إزعاجه بالزيارة أمر يضره أكثر مما يفيده.

قبيل شهرين من وفاته، كان من الصعب التحدث معه هاتفيًا، ولكن السيدة حرمه استثنتني وجعلته يتكلم معي. فجاء صوته واهنًا ضعيفًا، أحسست من خلاله بمدى معاناته، ولكنه كان واثقًا وراضيًا بقدره ومؤمنًا بربه وعطائه.

وليلة رحل إلى خالقه، علمت بالوفاة، وتصورت أن الصحف وأجهزة الإعلام التي تسارع في مثل هذه المناسبات إلى كتابة الأخبار والتعليقات، سوف تفعل الشيء نفسه مع شاعر كبير وأديب عظيم وعالم جليل مثل عبده بدوي، ولكن كان الصمت هو الحقيقة الوحيدة التي قوبل بها رحيله، باستثناء النص الذي نشرته الأسرة على حسابها. بعد أيام ظهر خبر هزيل في إحدى الصحف، وبعد نحو عشرة أيام نشرت مجلة الأهرام مقالاً قصيرًا نعته وودعته إلى الدار الآخرة.

لقد عاش كريمًا على نفسه وعلى من حوله، ورحل شامخًا معتزًا بعقيدته ومنهجه، بعيدا عن الجحود أوالعقوق الذي قابلته به الحياة الثقافية الفاسدة - رحمه الله. ■